الفصل الثاني

السماء في القرآن

ظهر من خلال ما تقدم من حديث حول الوصف في القرآن أن القرآن الكريم نظر إلى الوجود نظرة واقعية، ورآه ـ كما هو ـ وحدة منسجمة، فوصفه وصفاً يثير التأمل والتفكر ليصل الإنسان من ورائه إلى خالق عظيم بسط هيمنته عليه.

والسماء ـ ولا شك ـ مظهر من مظاهر القوة والعظمة، ومن هذه الزاوية انطلقت آيات القرآن الكريم في وصف السماء بل السموات السبع. ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

وفي سورة نوح يسوق القرآن الكريم قضية خلق السماء مساقاً هادفاً يثير التأمل ويحثّ عليه، فالسموات سبع متتاليات طباقاً، وهن يحتجن قوة وعظمة تسترعي انتباه من نظر إليهن: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

وازدادت سعة التساؤل هذا في سورة «ق» حيث وجه تفكير المتسائل عن هذه السموات إلى أن ينظر إلى بنائهن المحكم، وزينتهن بالنجوم والكواكب، وإلى اتساعهن وجمال ألوانهن. قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وفي سورة الملك تتسع دائرة الوصف قليلاً، فالسموات السبع طباق ليس فيهن نقص أو خلل، ولكن القرآن لم يعبر عن هذه الحقيقة بأسلوب جاف بل استحضر صورة السماء بفعل مضارع لينقل مشهداً من مشاهد الطبيعة الصامتة الخالدة، يلفت النظر إليه دليلاً على قدرة الله.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣].

ويشرك البيان القرآني البصر في قراءة الطبيعة وتأملها ليكون نافذة وسيعة إلى النفس، قال تعالى: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣-٤].

حقاً ينقلب إليك البصر خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من نقص[1]، وفي سورة فصلت تفصيل في وصف السماء وصورتها الوسيعة: فالسموات سبع، وما بينهن من الاتساع والعظمة ما يصعب على فكر البشر إدراكه. لكن القرآن الكريم لم يعبر عن هذا المعنى بهذا الوضوح بل استخدم قرينة أخرى تشير إلى إشراف عظيم واطلاع عميم على السموات السبع وأمورهن: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [فصلت: ١٢].

أما السماء الدنيا التي تظللنا فقد بثّ الله فيها نجوماً مصابيح تنير الليل وتكون رسول إيناس، وعلامات هدى، وحرس أمن. كل ذلك يعبر عنه بيان القرآن في آية قصيرة وجيزة الكلمات: ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ١٢].

وينقل أسلوب القرآن الكريم الكلام إلى الخطاب خطاب الناس جميعاً ويلفتهم إلى ما يعلوهم ويستحثهم على التأمل في هذا السقف المحفوظ فوقهم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ولما كانت هذه السموات السبع عظيمة أشار أسلوب القرآن إلى أن الله سبحانه غير غافل عما يجري فيهن، بل هو مطلع على كل شيء: ﴿ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].

وفي نهاية وصف السماء نلحظ أن القرآن الكريم قد جعل هذه السموات تنطق وأعطاها لساناً يلهج بالثناء والتسبيح بحمد الله تعالى، جاء ذلك في سورة الإسراء: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) تفسير القرطبي ١٨/٢٠٩.

تلك هي بعض مظاهر وصف السماء في أسلوب القرآن الكريم، التي اتجهت في دقة نحو هدفين اثنين هما:

بيان عظمة السموات من نحو، وذلك حين أشار القرآن إلى تعدد السماء واتساعها ونظامها واتساقها.

إشعار السامع بعظمة الله وسيطرته على هذه السموات وإدارة شؤونها ومراقبة سيرها وَفْقَ ما رسم من قوانين، فهو الذي ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠].

هكذا وصف القرآن السماء كما هي وضمن لهذا الوصف الحيوية والإيحاء وعبّر عن الحقائق الكونية تعبيراً رائعاً. يعيش المرء في ظلاله الندية، هاهي ذي السماء المترامية الأطراف، الوسيعة الأرجاء ترفع كما يرفع الإنسان واقية تحميه حرارة الشمس: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [الرعد: ٢].

وصف القرآن الكريم الشمس تارة، والقمر تارة ثانية، ثم وصفهما مجتمعين تارة ثالثة، وهو في كل مرة يشقق الحديث عن عظمة هذه العناصر التي تسهم في تشكّل لوحة الوجود الكوني، وتكون مظهر قوة، ووسائل دلالة على الله وآثاره للفكر النائم أن يستيقظ ويدرك حقيقة ما حوله.

ففي سورة نوح نبّه القرآن الكريم الناس إلى أنفسهم، ثم حثّهم على النظر في العالم المحيط بهم وما فيه من العجائب والآيات الدالة على الصانع القدير بأسلوب إنشائي يحرك الفكر: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

بعد أن مهّد بهذا الوصف أشار إلى القمر الذي ينير هذه السماء الدنيا في حين، ثم تكون الشمس ذلك السراج المتقد الذي يلقي أشعته فتتناثر في كل الأرجاء في حين آخر: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وفي سورة الشمس يثير القرآن الكريم الفكر ليتأملها، فها هي ذي الشمس

تبزغ كل صباح ثم تنهض نشيطة فيبدو الضحى عامراً بالحياة والنتاج: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١].

ومع غروب الشمس وقدوم الليل يبدو القمر وكأنه يبحث عن الشمس أو يتعقبها فهما أبداً متلاحقان، فالقمر جادٌّ في البحث عن الشمس يلاحقها ويتلوها: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤].

وفي سورة النبأ يشير القرآن إلى الشمس ويشبهها بالسراج المتقد الوضيء: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

فالشمس سراج وهاج في سورة النبأ لكنها في سورة يونس مضيئة تضيء الأشياء، والقمر نور يبين ويخفى حسب المنازل التي قدّر عليها[1]، والحال التي هو فيها، ومن وراء هذا النظام والتدبير يعلّم السنوات والشهور. ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

هذا الإيحاء تتركه كلمة «منازل القمر» التي تجعل الخيال يتصور القمر كل يوم يتنقل بينها مدلاً[2].

وفي سورة فاطر يصف الأسلوب القرآني الشمس والقمر وهما يتراكضان متتاليين، يعدوان في أفق بعيد تحكمها قوانين دقيقة، إنه صنع الله الذي أتقن كل شيء صنعه وبذلك يكون الوصف القرآني هادفاً.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

ويشبه بيان القرآن القمر في تنقلاته عبر جو السماء بالعرجون القديم ذلك الذي يتنقل كل يوم، والشمس تحاول اللحاق به، لكنها لا تستطيع فهاهما يتسابقان دون أن يخرجا عن مجالهما، وكل هذا الفلك الدّوار إنما هو بسبيل

(١) تفسير القرطبي ٨/ ٣٠٩ وانظر تفسير النسفي ٢/ ٢٦٦.
(٢) تفسير القرطبي ٨/ ٣١٠.

من ذلك: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩ـ٤٠].

وصف القرآن الكريم الشمس والقمر والنجوم على انفراد في بعض آي القرآن، ووصفها مجتمعة في بعض آيات أخرى؛ ففي سورة الأعراف وصفت الشمس والقمر والنجوم وصفاً مجتمعاً في آية واحدة، فهاهي ذي النجوم المتقدة والقمر الهادىء ليلاً، والشمس الثائرة نهاراً، كل هذه العناصر رغم اختلافها تتحد في خضوعها لله يسخرها كيف يشاء: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولا غرابة، فهذه العناصر التي تزين القبة السماوية تزيدها بهاء، فالمصابيح من نحو، والبروج من نحو آخر، والشمس والقمر في وصف القرآن سراج وهّاج وبدر منير: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

هذا الوصف للسماء وما فيها وصفٌ يتناسب فهمه مع مستوى من ينهض إلى قراءته وقد أورد الدكتور سعيد البوطي «أن هذه الآية تصف كلاً من الشمس والقمر بمعنيين، لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ولهما عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون وهذا سر إعجاز القرآن»[1].

---

(١) أحسن الحديث للبوطي ص١٠١.